(٢١)

المحبوسون في سجن المادة

العدد (٧٢) ذو الحجة (١٣٩١هـ) يناير (١٩٧١م)

في غضون القرن التاسع عشر للميلاد كانت نزعات الإلحاد تغلب على العقل الغربي، وبدا كأن العلم الطبيعي يتجه بالناس وجهة مادية تتنكر للدين وتضيق بتعاليمه، ولما كان الغربيون سادة الدنيا يومئذ فقد صبغوا الفكر العالمي تقريبا بهذه الصبغة الداكنة.

وقد تسأل: ماذا كان موقف المتدينين بإزاء هذا الكفر الزاحف؟

والإجابة أن المسلمين كانوا في حالة ذهول أنستهم رسالتهم المحلية والعالمية على سواء، فهم لا يريدون من دينهم شيئا طائلا ينفعون به أنفسهم بله أن ينفعوا به غيرهم!

وأما بنو إسرائيل فقد شرعوا عقب تقرر الحقوق السياسية في الأقطار الحديثة يجمعون شملهم، ليعيدوا ملك «يهوه» على الأرض، ويستعدوا لحكم العالم كله من أورشليم وما كان عليهم أن تكتسح ظلمات الشك كل ضمير!

وأما النصارى فلو تفرغوا لمواجهة هذا الخطر لكانوا كالذي يرد الطوفان بالراحتين، فكيف وهم مشغولون بالقضاء على الإسلام المريض؟

لذلك نجح الإلحاد في فرض أفكاره وأحكامه على أغلب ميادين النشاط الإنساني، وربما سمح للأديان أن تبقى ميولا فردية، واتجاهات أدبية، وحسبها ذلك.. على أن القرن العشرين للميلاد أخذ يتجه- خصوصا في أواسطه ونهايته- وجهة مغايرة، وظهر في كتابات كثير من العلماء الطبيعيين نزوع واضح إلى الإيمان بالغيب والتسليم بوجود إله حكيم قدير، عالم خبير!

وتدين العلم كسب إنساني جليل!

والصورة التي تكونت لدى العلماء الطبيعيين عن الله قد تكون أدنى إلى الحقيقة مما يهرف به كثير من رجال الأديان!

ولو كان للإسلام رجال يحسنون عرضه كما نزل في أصوله الأولى لكان الإسلام دين الحاضر والمستقبل على سواء، ولكن الفكر الإسلامي وقع في محنة رهيبة!

ولست أزعم أن كل العلماء الكونيين نزاعون إلى التدين، فهناك من ضل الطريق! ولكن تيار الإيمان لو مضى في طريقه بين هؤلاء دون عوائق سياسية، ودون إرهاب خارجي، لتغير الوضع، فإن جمهرتهم سوف تدخل في دائرة الدين بلا ريب!

والمشكلة التي نواجهها نحن في بلادنا الإسلامية هي تأخر مثقفينا في مضمار التقليد!

فعدد كبير منهم لا يزال يعيش في العقلية المادية للقرن التاسع عشر.

وعدد آخر قد يعدو هذا النطاق، ليرنو ببصره إلى المسجونين كرها داخل بعض المذاهب المادية الحاكمة، وهم قوم كفروا عن إرهاب لا عن اختيار ففيم يقلدون؟

الغريب أن نفرا من علماء الإسلام يزعمون أن الدين- كسائر القضايا الأدبية- لا صلة له بالعقل! أي أن التفكير الإلحادي للقرن التاسع عشر ما زال هو الذي يسيطر عليهم، فأي بلاء هذا؟

ونحن نناشد أحرار العقول أن يراجعوا أنواع المعرفة التي تعرض عليهم، فإن للاستعمار الثقافي دخلا في تلويثها وغشها.

إن أعظم شيء في رسالة الإسلام احترامه للعقل البشري، وحفاوتها بالعلم الطبيعي، وبناؤها اليقين على النظر الصائب في ملكوت الأرض والسماء.

ولا يوجد كتاب سماوي حث العقل على النظر، وقاد العلم في مضمار البحث كهذا القرآن الكريم.

إننا بمنطق القرآن نرفض الظنون ونخضع لليقين، نرفض الأوهام ونستكين للحقيقة وحدها..

إن التدين الذي تعلمناه من كتابنا ليس تحميل العقل ما لا يطيق، ولا الهيمان في عالم الأخيلة.. إنه تدين ذكي عملي.

ثم هو يضم إلى هذا الفكر الناضج قلبا سليما، لا مكان فيه لنية خبيثة أو غرض صغير، على أساس أن الإنسان لا يسيره العلم النظري قدر ما تسيره مقاصده وآماله..

وما أكثر أن يكون الذكاء سلاحا يستعمل في الخير والشر على سواء، فإذا صدق الإيمان صلح القلب واستقام المنهج ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (**التغابن**: ١١). ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (**ق**: ٣٧).

وفي معرفة الكون وخالقه، والنفس وهداها يقول ابن عطاء الله السكندري هذه الكلمة الحاسمة:

«لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (**النجم**: ٤٢)، وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، فافهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل في هذا الأمر إن كنت ذا فهم.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١ ﴾ (**الذاريات: ٤٠، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١**).

هذه آيات خمس، الثلاث الأولى منها وصفت الأكوان علوها، وسفلها، وما أنبتت فيها من حياة وأحياء.

والاثنتان الأخريان انتقلتا من الأكوان إلى المكون فتحدثتا عن وجوده ثم توحيده.

ولفت الناس هنا إلى الله جاء بصيغة عجيبة ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ ...﴾ وهذا الفرار إنما يكون مما يحذر ويعاب.

والحق أن الانحصار في الكون والاحتباس بين مظاهره فواحش عقلية ونفسية لا يرضاها أريب لنفسه، بل ينفر منها أولو الألباب.

إن من له أدنى مسكة يعرف- من العالمين- رب العالمين، ويعرف- من الاكوان- صاحب هذه الأكوان!

إن هذا الملكوت الضخم الفخم من ودائع ذراته إلى روائع مجراته شاهد غير مكذوب على أن له خالقا أكبر وأجل.

إنها لجهالة أن يغمط هذا الإله العظيم حقه، وإنها لنذالة أن يوجد بشر ينكره ويسفه عليه.

ولكن: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ (**النحل: ٤**).

والعاقل ينظر في الكون فيتعلم منه تسبيح الله وتحميده، ويستنتج من قوانين الحياة وأحوال الأحياء ما يستحقه المولى الأعلى من أسماء حسنى، وصفات عظمى.

والناس صنفان، صنف يعرف المادة وحدها ويجهل ما وراءها، ولا نتحدث الآن مع هؤلاء.. فقد ذكرنا نبأهم فيما مضى.

وصنف مؤمن بالله مصدق بلقائه، ولكنه هائم في بيداء الحياة، ذاهل وراء مطالب العيش، مستغرق المشاعر بين شتى المظاهر، فهو لا يكاد يتصل بسر الوجود، أو يتمحض لرب العالمين.

ومع هذا الصنف المؤمن نقف لنرسل الحديث.

هناك قوم لا تخلص لله معاملاتهم، بل هي مشوبة بحظوظ النفس ورغبات العاجلة، وهؤلاء لن يتجاوزوا أماكنهم ما بقيت نياتهم مدخولة، حتى إذا شرعت أفئدتهم تصفو بدأوا المسير إلى الأمام.

وهناك قوم يعاملون الله وهم مشغولون بأجره عن وجهه أو بمطالبهم منه عن الذي ينبغي له منهم، وهؤلاء ينتقلون عن أنفسهم من طريق ليعودوا إليها عن طريق أخرى.

إنهم مقيدون بسلاسل متينة مع أنانيتهم فهم يسيرون ولكن حولها، لو حسنت معرفتهم بالله ما حجبتهم عنه رغبات مادية ولا معنوية، بل لطغى عليهم الشعور به، وبما يجب له، وتخطوا كل شيء دونه، فلم يهدأوا إلا في ساحته، ولم يطمئنوا إلا لما يرضيه هو جل شأنه، على حد قول أبي فراس:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خـــراب

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تـــراب

وابن عطاء الله يرى أن العامة يترددون بين مآربهم، كحركة بندول الساعة، لا تتجاوز موضعها على طول السعي، أو هم على حد تعبيره كحمار الرحى ينتقل من كون إلى كون، والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه.

والواجب على المؤمن أن يقصد وجه الله قصدا، وأن يتفصى تفصيا عن ألوف الأربطة التي تشده إلى الدنيا، وتخلد به إلى الأرض!

ومن خدع الحياة أن المرء قد يعمل لنفسه وهو يحسب أنه يعمل لله، ولو وضعت بواعثه الكامنة تحت مجهر مكبر لاستبان أن كثيرا من دواعي غضبه وسروره وتعبه وراحته، يصلها بوجه الله خيط واه، على حين تصلها بحظوظ النفس حبال شداد.

وهنا الخطر المخوف، إن الهجرة إذا كانت لله فقد مضت وقبلت، وإلا فالأمر كما قال الرسول ﷺ: «من هاجر إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

والشعور بوجود الله ليس أمرا يتكلف له الإنسان شيئا، إنه شعور بالواقع!

قد يكون لك حبيب مسافر مثلا فأنت إذا اشتقت إليه تتخيل صورته وتحاول الأنس بالوهم عن الحقيقة.

ولكن الشعور بالله ليس تقريبا لبعيد ولا تجسيدا لوهم، إنه شعور بالواقع الذي يعد تجاهله باطلا، كشعورك مثلا- وأنت في البيت- بأنك في البيت، أو شعورك- وأنت في القطار- بأنك في القطار.

إنه الواقع الذي لا معدى عن الاعتراف به، وبناء كل تصرف على أساسه.

إن الألوهية لا تفارق العباد لحظة من ليل أو نهار، ومن ثم فإن الغفلة عن الله غفلة عن الحق المبين.

وإذا كان الأعمى يعجز عن رؤية الأشياء فإن الأشياء لم تزل في مكانها لأن عينا كليلة لم تتبينها.

واذا كان الناس مذهولين عن الحق المصاحب لهم المحيط بهم، فذلك عمى تعود عليهم وحدهم معرته.

وقد كثر القرآن الكريم من إشعار الناس بهذه المعاني، وصاح بهم وهم

يفرون عنها، إلى أين؟ ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ (التكوير: ٢٦) أين المذهب ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ (البروج: ٢٠).

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد: ٣، ٤)

هو بصير بما نعمل، وهو معنا حيثما كنا! ألا تعين هذه الحقائق على صدق المعرفة وحدة الشعور بوجوده وإشرافه؟

ثم ألا يدل ذلك على أن ذكرك لله ليس استحضارا لغائب؟ إنما هو حضورك أنت من غيبة، وإفاقتك أنت من غفلة!

ولا بد هنا من توكيد التفرقة بين وجود الله ووجود العالم، فإن بعض الناس يستغلون المعاني التي شرحناها للبس الحق بالباطل.

إن وجود الله مغاير لوجود سائر المخلوقات، وهذا العالم منفصل عن ذاته جل شأنه انفصالا تاما.

وقد تسمع بعض الفلاسفة أو بعض المتصوفين يقول: إنه يرى الله في كل شيء.

وهذا التعبير صحيح إن كان يعني أنه يرى آثاره وشواهده.

أما إن كان يعني وحدة الخالق والمخلوق، أو وحدة الوجود كما يهرف الكذبة، فالتعبير باطل من ألفه إلى يائه، والقول بهذا كفر بالله والمرسلين.

ووصف الإحاطة الإلهية في هذا المجال وسيلة لا غاية، وسيلة لتصحيح النية والجهد والهدف، وإهابة بالإنسان أن يدير نشاطه البدني والعقلي على مرضاة الله وحده.

وليت الناس يسعون في هذا الطريق بنصف قواهم! لو أن امرءا حاول استرضاء الله بنصف الجهد الذي يبذله في كسب المال، أو التمكين في الأرض لقطع مرحلة رحبة في طريق الارتقاء الروحي والخلقي، ولو أن امرءا كره الشيطان ووساوسه بنصف الشعور الذي يكره به الآلام، والخصوم لنال من طهر الملائكة حظا.

إن الله قد يقبل نصف الجهد في سبيله، ولكنه لا يقبل نصف النية.

إما أن يخلص القلب له، وإما أن يرفضه كله.

وقد أسلفنا القول إن الانسان قد تحتل قلبه مقاصد شتى هي التي تبعثه على الحركة والسكون، وعلى الرضا والسخط، وإن هذه المقاصد تنبعث عن إنانيته لا عن إيمانه بربه، وابتغائه ما عنده.

والعلماء المربون يطاردون هذه المقاصد المتسللة إلى القلب، ويمنعونها أن تثوي فيه، ولا يتوانون في مطارداتها حتى تخفى ويطهر القلب منها.

ذلك أن الإسلام دقيق جدا في تقويم العمل بالنية الباعثة عليه والغاية المصاحبة له، فمن لم يكن الله وجهته في هجرته فلا عمل له ولا خير فيه.

في الحياة الآن ألوف من المدرسين والأطباء والمهندسين والضباط والعمال والتجار والموظفين... الخ يزحمون ظهر الأرض بحركة واسعة المدى، فأما ما كان للتكاثر والتظاهر فسوف يلصق بالتراب، وربما بقي لصاحبه طول حياته، وربما افتقده قبل أن يموت، وأما ما كان لله فهو مبارك الثمر ممتد الأثر، إن البقاء لما قصد به رب السماء ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (**الشورى**: ٢٠).

❖ ❖ ❖

ونعود إلى الصنف المسجون بين عناصر المادة لا يعرف غيرها، إنه ينتقل

من عنصر إلى عنصر، وينسب مادة إلى مادة، ويجحد ما بعد ذلك.

وقد ناقشنا هؤلاء، ودحضنا ما ساقوا من شبه، ونريد هنا كشف الستر عن بعض دعاوى القوم.

إن وصف الإيمان بأنه حركة رجعية، والإلحاد بأنه حركة تقدمية وصف كاذب، فالكفر قديم قدم الغرائز الخسيسة، والأفكار السفيهة، وتاريخ الحياة يتجاور فيه الخير والشر، والصلاح والفساد، فمن قال: إن الإيمان طبيعة أيام مضت وانتهى دورها، وإن الكفر يجب أن يفسح له الطريق فهو دجال.

كذلك وصف الإيمان بأنه حركة فكر محدود، والإلحاد بأنه حركة عقل ذكي أو وصف الإيمان بأنه منطق الدراسة النظرية، والإلحاد بأنه منطق الدراسة العملية والبحوث الكونية.. هذا كلام خرافي لا حرمة له، فإن جمهرة كبرى من قادة العلم الكوني والدراسات الحيوية يؤمنون بالله، ويرفضون الزعم بأن الكون خلق من غير شيء.

والواقع أن الإلحاد يعتمد على الظنون والشائعات، لا على اليقين والبراهين، وأنه لم يثبت في معمل أو مختبر بأن الله غير موجود، وكل ما هنالك أن الماديين نسبوا لغير الله من النظام والإبداع ما لا تصح نسبته إلا لله.

ووراء هذا النسب المنتحل ساروا، وأيديهم خالية من أي يقين، هم كما وصف القرآن الكريم ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (**يونس: ٣٦**).

أما الدلائل التي تغرس الإيمان في القلوب، عن طريق التفكير السليم في هذا الكون الكبير فهي قائمة ناهضة.